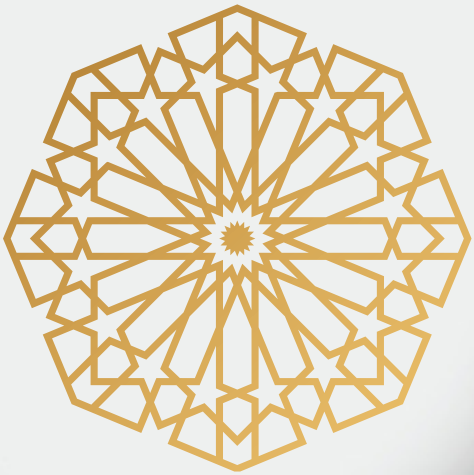

سَيْرُ القُلُوبِ

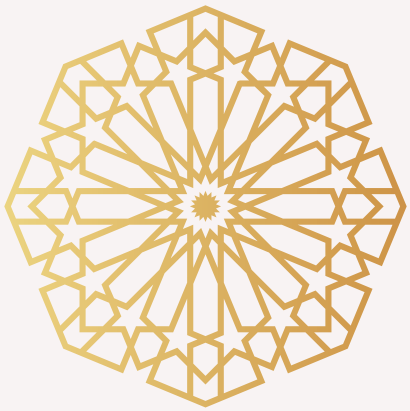

اسم الكتاب:

سَيْرُ القُلُوبِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

في رحلة الإنسان إلى ربه، لا يكون السير بالأقدام ولا بكثرة الأعمال الظاهرة وحدها كافيًا، بل إن المسير الحقيقي يبدأ من أعماق القلب. فكما أن للجسد خطواتٍ يقطع بها المسافات في الأرض، فإن للقلب خطواتٍ خفيةً يقطع بها مسافاتٍ في الإيمان والمعرفة واليقين، ترفعه إلى المنازل العُليا في مقامات العبودية والقرب. ومن هنا، فإن أعظم السير وأشرفه هو سير القلوب إلى الله، حيث تتجلى حقيقة الإخلاص، ويُكشف صدق المحبة، وتظهر آثار الإنابة والخشوع.

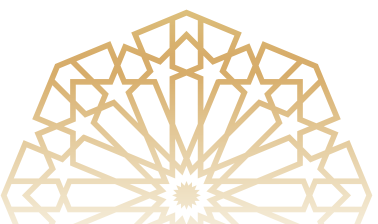

عَناصِرُ المُوضُوع

١. سير القلوب إلى الله.

٢. تعرّضوا لنفحات رحمة ربكم.

٣. يُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

٤. سير القلوب في رمضان.

٥. معالم السير إلى الله.

- أولا : الصدق.
- ثانيا : انزعاج القلب.
- ثالثا: الاستغفار .
- رابعا : لين القلب.

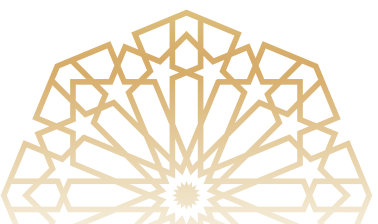

١

سير القلوب إلى الله:

أسفار الدنيا تقطع بسير الجوارح، لكن أسفار الآخرة لا يكفيها سير الجوارح بل لا بد وأن يتقدمها سير القلوب إلى ربها وخالقها، فلا يعتقد مؤمن أنه سيره إلى الله بجوارحه فقط عند التزامه الطاعات وابتعاده عن المنكرات سيوصله إليه سبحانه، بل إن السير الأول والأهم، والأكثر خطورة، والأعظم أثرًا هو سير القلب .

عن يحيى بن معاذ رحمه الله قال: «مَفَاوِزُ الدُّنْيَا تُقْطَعُ بِالْأَقْدَامِ، وَمَفَاوِزُ الْآخِرَةِ تُقْطَعُ بِالْقُلُوبِ» حلية الأولياء (٤/٢٧٩).

إن طريق الدنيا يُسلك بالحركة الجسدية والسير بالأقدام، كالسفر والتنقل والكدِّ. أما طريق الآخرة، فلا يُمكن بلوغه بالحركة الظاهرة فقط، بل يُقطع ويُسلك بصدق القلب وإخلاصه، من محبة لله، وتوكل عليه، وإنابة إليه، وخشوع وصدق نية. فالقلب هو الذي يُوصل إلى الله، لا الجسد وحده.

هناك أسرار خفيَّة لا يراها الناس... يحبها الله، وتكون في القلوب. أسرار تزيِّن القلب بالتقوى، بالحياء من الله، بالرضا عنه، بحُسن الظن به، بالصدق في الأقوال والأعمال. أعمال يحبها الله عز وجل، قد لا نعرفها، لكنها عند الله عظيمة... وهو وحده من يراها، ويُجازي عليها.

قد لا يرى الإنسان نفسه على شيء... بل قد يشعر أنه متأخر، مقصِّر، بعيد عن الله. لكن، رغم هذا، قد يحمل في قلبه خصلة يحبها الله عز وجل: حُسن خُلق، أو نية طيبة، أو قلب سليم.

حتى وإن كان مُقصّرًا في عبادته، فالله وحده يعلم من تصيبه رحمته. نحن لا نعلم، ولا نحكم على أحد، فالحُكم لله وحده.

تمامًا كما تعلَّمنا في دروسنا... نجتهد، ونتأهب، ونُحضِّر قلوبنا لرمضان، ننتظر نفحات الرحمة، وهذا الاستعداد نفسه... جزء من العبودية. لكن، من الذي يُقبَل منه؟ من هو الذي كُتِب له العتق من النار؟ لا ندري... فمَنْ بيننا من سيعتقه الله من النار في رمضان؟

تخيّل فقط... أن يُكتب في السماء: «فلان عُتِقَ من النار».

وأنت لا تزال تعيش في الدنيا، ربما أذنبت، وربما قصَّرت، لكن الله برحمته شملك،

وكتبك من العُتقاء، من أهل الجنة. ما أعظمها من كرامة! وما أرحمه من رب! نحن لا نعلم من الذي سوف يُقبل.

انظر ليوم العيد... حين نخرج جميعًا لصلاة العيد، نرى أفواجًا من الناس، من كل بلاد العالم، مختلفين في لغاتهم، أجناسهم، طبقاتهم... لكنهم كلهم يجتمعون على أمرٍ واحد: الإسلام. كلهم في طريقهم لصلاة العيد، وكأنهم ذاهبون لاستلام نتائجهم، فرحين بما

آتاهم الله من فضله، وجوههم مشرقة، وقلوبهم تترقب.

تنظر إلى هذه الجموع وتقول: سبحان الله... مَنْ فيهم كتبه الله من العُتقاء؟ من تقبَّل الله صيامه وقيامه؟ من غُفِر له؟ ومن عاد كيوم ولدته أمه وهو لا يعلم؟! لهذا، لا بد أن نُكثِر من الدعاء... «اللهم أعنّا على الصيام والقيام، بما يُرضيك عنَّا».

اللهم، إني أبرأ من حولي وقوتي، إلى حولك وقوتك. لا أقدر، يا رب، إن لم تُعِنّي. يا رب، أريد أن أفوز... أن أغتنم هذا الشهر. يا رب، أريد أن أتغير، أن أُقرّب نفسي إليك، أن أخرج من رمضان بقلب جديد.

رمضان ليس مجرد وقت... هو موسم تغيُّر، موسم رحمة. كل شيء مُسخَّر لك... أبواب النار مغلقة، الشياطين مصفَّدة، أبواب الجنة مفتوحة! كل هذا لك، لكي تعبد الله، وتقول من أعماق قلبك: «يا رب...».

في أول ليلة من رمضان، تحدث أمور عظيمة في السماء، أحداث لا نراها... لكن الله يعلمها. لمن كل هذا؟ لمن تلك الأنوار، وتلك النفحات، والملائكة؟ لك... ولي... فاسأل الله من الآن: «يا رب، أعنِّي... يا رب، لا تتركني لنفسي».

حركة واحدة من صدق تكفي... ليست بالضرورة أن تفعل شيئًا كبيرًا، ولا يلزم أن تسافر للعُمرة لتكون صادقًا. لا... ربما لحظة

انكسار، أو افتقار، أو دعاء من أعماق قلبك... تكفي لتفتح لك أبواب السماء، وتجعلك من العُتقاء.

٢

تعرَّضوا لنفحات رحمة ربكم:

روى ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«اطلبوا الخير دَهرَكم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله عز وجل نفحاتٍ من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمِّن روعاتكم».

الراوي: أنس بن مالك | المحدث: الهيثمي | المصدر: مجمع الزوائد

الصفحة أو الرقم: ١٠/٢٣٤ التخريج: أخرجه القضاعي في ((مسند الشهاب)) (٧٠١)، والطبراني (١/٢٥٠) (٧٢٣)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/١٦٢)

النفحة: هي دفعة عظيمة من الرحمة الإلهية، منحة ربانية، لا تُشترى ولا تُطلب إلا بصدق القلب، وسعي العبد.

والله جلّ جلاله قد يختار من عباده من يخصُّهم بهذه النفحات.. يفيض عليهم من رحمته، ويكرمهم من فيض عطائه.

فيا ربنا، اجعلنا من عبادك الذين خصصتهم برحمتك!

«تعرَّضوا»، أي: افتحوا قلوبكم، وتهيؤوا لاستقبال هذه النفحات.. ليس فقط بالجوارح، بل بالقلوب قبل كل شيء.

هناك قلوب يحبّها الله.. قلوب تمشي بصاحبها إلى الله، فليست الرحلة إلى الله رحلة أقدام، بل رحلة قلوب.

وفي رمضان.. نحن في طريق خاص، في موسم فريد من السير إلى الله، لأن رمضان نفحة من نفحات الله، عطية خاصة، لا تتكرر بهذا الشكل في العام كله.

إن الله يريد لك الفوز، يريد لك الرحمة، يريد لك أن تنجو.. لم يخلقك ليعذبك، بل ليرحمك. خلق لك الجنة، وزيَّنها، وفتح لك أبوابها في هذا الشهر المبارك. أبواب الجنة تُفتح، وتُزيَّن لأجلك.. أجلك أنت، وأجلك أنت، لعلَّك تُقبل، لعلَّك تتغيَّر، لعلَّك تعود.

والله لا يترك عباده.. طوال العام قد تضعف، تذنب، تتقلب بين الطاعة والغفلة، بين العزم والكسل.. لكن الله لا يتركك، بل يفتح لك في رمضان باباً خاصاً للعودة، باباً للنفحات، باباً للفوز برحمته ورضاه.

فهيَّا.. تعرَّضوا لنفحات الله في هذا الشهر العظيم، فإن لله نفحات لا تُقدَّر بثمن، ولا يعلم فضلها إلا من ذاق حلاوتها.

٣

يُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ:

في هذه الكلمات بابٌ للتنافس، وميادين للسابقين.. فنفحات رحمة الله ليست موزعة عبثًا، بل يُصيب بها من يشاء.. فهل تتصور أن التعرض لهذه النفحات يكون بالجوارح فقط؟ لا. إنه تعرُّض بالقلوب أولًا. فالقلوب هي التي يحبها الله، وهي التي تسير بأصحابها إليه. والمسير إلى الله لا يكون بالأقدام فقط، بل هو مسير قلب. قلبٌ يحب، قلبٌ يشتاق، قلبٌ يرجو، قلبٌ يسير... لكن منَّا من يسير بقلبه، ومنَّا من تثقله دنياه.

٤

سير القلوب في رمضان:

أ-رمضان هو طريق السير:

طريق اصطفاه الله، وزمنٌ جعله نفحة من نفحاته. رمضان ليس شهرًا عاديًا، بل عطية ربانية، ونافذة مفتوحة للفوز. الله يريد لنا الفوز. يريد أن نرجع، أن نُقبل، أن نتطهَّر. لم يخلقنا ليعذبنا، بل خلق لنا الجنة، وزيَّنها لنا، وأرادنا لها. فرمضان موسم السباق، ومجال السير، ونفحة لا تُفوَّت. فلنُقبل بقلوبنا، قبل جوارحنا.

ب. لأن رمضان يجمع القلوب:

ترى الجميع فيه طيب النفس، منشرح الصدر، القلوب متقاربة، والوجوه باسمة، والروح مطمئنة. الجو هادئ، والأيام خفيفة رغم الصيام، والصيام نفسه خفيف على النفس، وهذا من رحمة الله بنا، أن جعل من هذا الشهر سَكينةً تنزل على الأرواح.

ج. في رمضان تتجدد القلوب:

رمضان يوقظ القلب من غفلته، تجد قلبك «غير»، يتقلب بين مقامات الإيمان ودرجات القرب. تمر فيه بمشاهد من الخُشوع والخشية، وتعيش مشاعر الرحمة والأنس بالله. تحس أن الله معك، تحس أنك لست بعيدًا، بل أقرب إليه مما تظن.

د. رمضان... لحظة رجوع وتبدُّل حال:

تحس أن الإنسان، حتى العبد الذي كان بعيدًا عن ربه طوال العام، يجد في رمضان شيئًا مختلفًا... ذاك الذي كان غافلًا، منشغلًا، يلبس في رمضان عباءة الخشوع، ويشعر بشيء في قلبه لم يكن من قبل.

رمضان يغيِّر، حتى أهل المعاصي، والمقيمين عليها، تجد فيهم نوعًا من الانكسار، ومشاعر لم يألفوها في غيره. الله يُعينهم في رمضان، يضعف في نفوسهم دوافع الشر، ويهزُّ خواطر المعصية، ويُضعف كيد الشيطان عن قلوبهم، فيرتاح القلب، وتهدأ النفس، ويعمُّ السلام الداخلي.

رمضان لحظة راحة. فقبل رمضان، نركض في هذه الحياة... مشاوير، انشغالات، لهو، تعب، لكن ما إن يدخل رمضان، حتى نشعر أن الدنيا توقفت قليلًا، وأننا قد تفرغنا لشيء أعظم... لربنا.

٥

معالم السير إلى الله:

هناك قلوب يحبها الله وخطة السير إليه في رمضان. كلنا نقول: «يا رب، أريد أن أفوز، أريد أن أغنم من هذا الشهر العظيم، أريد الخير الذي عندك».

لكن... ما الخطة؟ ما الذي يجب أن يكون في قلبي حتى أصل؟ ما الطريق الذي يوصلني إلى محبة الله ونفحاته ورضاه في رمضان؟

الجواب يبدأ من أول مَعْلم على خريطة السير إلى الله:

المَعْلم الأول في السير إلى الله:

أولا : الصدق

أول خطوة في الطريق أن تَصدُقَ الله، وتكون صادقًا في نيتك، في طلبك، في رجائك. القلوب التي يحبها الله هي القلوب الصادقة، التي لا تخادع ولا تتجمَّل، بل تأتيه مكسورة، راغبة، مقبلة بصدق. فما بينك وبين السماء أبواب... ولها مفاتيح. وأعظم هذه المفاتيح: مفتاح الصدق.

قال الله تعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا } [الإسراء: ٨٠]

فابدأ رمضانك بهذا الدعاء، وبهذا الصدق، فمن صدق الله، صدقه الله... ومن طرق باب الرحمة بصدق، فُتح له الباب، ونال النصيب، وفاز بالقُرب.

علامة الصدق: الشوق الصادق لرمضان. «يا رب، اجعل كل مداخلي ومخارجي في رمضان في طاعتك ورضاك... كما تحب وكما تريد، يا رب العالمين».

لكن، كيف يُعرف الصدق؟

كيف أعرف أنني صادق في طلبي وقصدي في هذا الشهر العظيم؟

الصدق يظهر حين يرى الله منك الخير، حين يرى في قلبك رغبة حقيقية وشوقًا عميقًا لبلوغ رمضان. هذا الشوق الذي يسكن قلوبنا قبل دخول الشهر، هذا الترقب، هذه الدعوات، هذا الاستعداد... كلها عبادات قلبيَّة خفية، لكنها أعظم علامة على صدقك. أن تشتاق لرمضان رغم مشقته، رغم تغيُّر روتينك، رغم أنك ستتنازل عن راحتك، وعن عاداتك اليوميَّة من قهوة، وصباحات معتادة، وزيارات. ومع ذلك تقول: «يا رب، أريد رمضان، أريده بقوة، لأني أريد ما عندك من الرحمة والمغفرة، أريد أن أفوز».

هذا الشوق هو عبادة... وهذه الرغبة هي صدق. كذلك يُعرف الصدق... أن يكون العبد صادقًا، أن يبلغَه الله رمضان، هذه نعمة عظيمة، لا بد أن أجدد فيها النيَّة.

أُخلِص النيَّة... يا رب، هذه نيتي... أنوي رضاك. أنوي الخير، وأنا عازم عليه. إن لم تكن صادقًا في لحظة بينك وبين الله، لحظة صدق خالصة... قل: يا رب، أريد أن أتغيَّر. يا رب، أريد أن أترك هذا الشيء اللي يبعدني عنك. يا رب، أنا ضعيف، ولا أستطيع وَحدي. في دقيقة واحدة فقط... إذا أشهدت الله على ضعفك، على حاجتك، على صدقك... فإن الله، والله، سيرى قلبك، ويرى صدقك. وحينها... والله إن الله سيعطيك فوق ما تتمنى، ويعينك على ما لا تطيق.

لحظة الصدق... هي البداية. أتعلم ما قيمة لحظة الصدق مع الله؟ هي لحظة صغيرة في ظاهرها، لكنها عند الله عظيمة، موضوعة في الميزان، لا تضيع. فإذا رأى الله من العبد صدقًا، ولو كان ضعيفًا مفرِّطًا، فتح له أبوابًا من الرحمة والهداية، لا تخطر له على بال. الطريق إلى الله لا يبدأ بخطوات ضخمة... بل بشبر، بنيِّة صادقة، وهمة صافية. الأبواب كلُّها مفتوحة لك. طريق رمضان يبدأ بحركة بسيطة... خطوة صغيرة، لكنها عظيمة في الأثر.

اعلم أن عملك بمجهود «شبر»، الله يسدد خطواتك، ومع كل مرة تزيد فيها الهمة والجهد والعمل، يأتي بعدها مجهود «الذراع»، وتأتيكِ معاملة الهرولة من الله، بإذنه. وهذه المعاملة من الله... معاملة مختلفة تمامًا.

ليست كعطاءات أهل الدنيا: «أعطتني فأعطيتها»، أو «أحبَّتني فأحببتها». بل الله يعطينا دون أن نسأله، ويمنُّ علينا من واسع فضله. سبحانه المنَّان، عطاؤه مختلف، رزقه مختلف، وأسراره عظيمة. هذه هي معاملة الله، الربِّ، ربِّ العالمين.

لا تُجبر قلبك أن يكون حاضرًا دومًا... بل اجعل قلبك يعود متى شاء الله له أن يعود. الله وحده يملك مفاتيح كل شيء، ويقدر أن يفتح قلبك في لحظة... ويهبك من الخشوع والسكينة والرضا، ما لا تبلغه أنت بسعيك وحدك. الوهاب الكريم، الملك العظيم، سبحانه يملك السماوات والأرض، ويملك ما بينهما، ويملك كل حاجتك.

- إن كنت مهمومًا: فلا يزيل همك إلا الله.
- وإن أردت قلب إنسان، أو مودته، أو عونه: فقلبه في ملك الله.
- وإن كنت مكسورًا، مظلومًا، مجروحًا: فكل ذلك في علم الله، وتدبيره.

وأنت نفسك... شيء من ملك الله. والله على كل شيء قدير.

إذا أصابك ظلم أو وقع عليك ابتلاء، فاجعل كل همٍّ دعاء.

قالوا عنك كلامًا؟ اتهموك؟ جرحوك؟ لا تقضي ليلك تفكر: «ماذا أقول؟ ماذا أرد؟ كيف أثبت براءتي؟».

بل قل: «يا رب، وكلتك أمري». «يا رب، اهْدِ، وسدِّد، وخذ بقلبي

إليك». هذه عبودية عظيمة. أن تحوِّل كل مشاعرك، كل تقلبك، كل خوفك... إلى دعاء وتسليم.

الدعاء الأول : اللهم اهدني وسدِّدني

قال لي رسولُ الله ﷺ: «قل: اللهم اهدني وسدِّدني، واذكر بالهُدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم». وفي رواية: «اللهم إني أسألك الهُدى والسَّداد».

صحيح مسلم-الصفحة أو الرقم: ٢٧٢٥

في هذا الحديث النبوي، علَّم النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه دعاءً عظيمًا،

يجمع أهم ما يحتاجه الإنسان للوصول إلى الله، والفلاح في الدنيا والآخرة:

- الهُدى:
  - هو معرفة الحق تفصيلًا وإجمالًا.
  - وهو توفيق للعمل به ظاهرًا وباطنًا.

- السَّداد:
  - هو التوفيق للاستقامة في القول والفعل والاعتقاد.
  - أن تسير في طريق الحق بثبات، كأنك سهم موجَّه يصيب هدفه بدقة.

تأمل كيف شبَّه النبي ﷺ الهداية والسداد:

- الهداية: كالمسافر الذي يعرف الطريق فلا ينحرف يمينًا أو يسارًا، حتى يصل بأمان.
- السداد: كسَهمٍ ينطلق بسرعة وثبات، ويصيب الهدف بدقة.

والآن... تذكَّر حال التائه، الحيران... ذلك الذي لا يعرف الطريق، ولا يعلم من أين يبدأ، ولا كيف يصل... ذلك الإنسان هو أنا. «يا رب، لا أعلم كيف أصل إليك، ولا أعرف كيف أسلك هذا الطريق».

لكن علمني نبيُّك ﷺ أن أقول: «اللهم اهدني وسددني». فيا رب، اهدِ قلبي كما تُهدى الأقدام على الطريق. وسدِّد عملي كما يُسدَّد السهم نحو الهدف.

وطالما أنك واقف على باب الله، تطرق وتلِح، راجٍ، منكسِر، مفتقر، محسن الظن بالله... فلا بد أن يُفتح لك. لأن اللهَ لا يرد من دعاه، ولا يطرد من جاءه خائفًا، ولا يترك من قال له: «يا رب، دلَّني عليك».

الموسوعة الحديثية - موقع الدرر السنية- شرح حديث اللهم اهدني وسددني .

وإن علم الله صدقك...

- سيأخذ بيدك، وسيوجهك، وسيعلمك، وسيفتح لك أبواب الخير. أبوابٌ كنت تعرفها ولم تفهمها، أو لم تفكِّر بها، أو لم تعش

حلاوتها. سيفتح الله لك عبادات ما كنت تعرفها، ويزيدك من فضله، ويشرح صدرك لما يحب ويرضى، ويُسخِّر لك العباد، وهو القادر.

الله يفتح لك أبوابًا لم تخطط لها: تأتيك الخيارات حيث أنت.، يذكِّرك أحد، يرسِل لك من ينبهك، يُعان قلبك على المعروف. لأن الله يوفِّق من تعرَّض لنفحاته.

رحمة الله تتنزل بحسب:

١.مدى تعرُّضك للنفحات.

٢.صلاح قلبك لقبولها.

فالله يختار من عباده من ينال هذه الرحمات، ويستمر الخير لهم، لأنهم تهيَّؤوا لاستقباله.

لكي أتعرض، يجب أن أُهيِّئ قلبي:

- أن أنقِّيه من الغل، الحسد، الكِبر، الكراهية،
- من التعلُّق بالدنيا،
- من التنافس على الفاني،
- من التعالي على الناس أو احتقارهم.

وما أعظم رمضان، وما أكرم نفحاته! رمضان مليء بالكنوز، والخير الذي تراه في حياتك من: انشراح الصدر، الطمأنينة والسَّكينة، حُسن الظن بالله، تيسير الأمور، تفريج الكربات، حُسن الأخلاق والعمل. هذا هو المَعْلم الأول في السير إلى الله .. مَعْلم الصدق.

إذا علم الله صدقك، سيهديك. سيأخذ بيدك، يوجهك، يعلمك، ويفتح لك أبواب الخير. أبوابٌ ما كنت تعرفها، وأبوابٌ كنت تعرفها لكن لم تفهمها من قبل... أعمال صالحة، عبادات مخفية، لذَّة في الطاعة، ولطف في الطريق.

الله وحده هو من: يشرح صدرك للطاعات، ويفتح لك من العبادات ما لم يخطر ببالك، ويزيدك من فضله حين تستحق. ما دمت صادقًا، الله يسددك، ويفتح لك أبوابًا، ويسخِّر لك من العباد من يعينك ويذكِّرك ويوقظك؛ لأنه القادر، العليم، اللطيف.

الله سيفتح لك أبوابًا... لم تخطِّط لها. تأتيك الخيارات حيث أنت، يرسل الله لك من يوقظ قلبك، رسالة من صديق، موقف يحرِّك فيك شيئًا... لأنك تتعرض لنفحاته.

ورحمة الله... تفيض على من تعرَّض لها؛ لكن الرحمة تحتاج إلى: تعرض واستعداد، وقلب صالح قابل لها. فالله له نفحات يختص بها من يشاء من عباده، ومن صدق في التعرُّض لها، استمرّ له الخير.

لكي أتعرض، يجب أن أُصلح «المحل»، أنقِّي قلبي مما لا يحب الله أن يراه: الغِل، الحسد، الكِبر، الكراهية، حب الدنيا والتنافس عليها، الاستعلاء واحتقار الناس.

وما أعظم رمضان... وما أكرم نفحاته! رمضان ليس فقط موسم صيام وقيام، بل كنز نفحات، وموسم فتح.

ومن بركات العمل الصالح التي يذيقك الله إيَّاها: انشراح الصدر، سكينة الروح، طمأنينة النفس، حُسن التوكل على الله، تيسير الأمور، أن يُيسر لك اليُسرى، ويجنبك العُسرى، حُسن العمل مع حُسن الأخلاق، تفريج الكُرب، رفع البلاء قبل أن ينزل.

ثانيًا : انزعاج القلب

أما من أراد الله به خيرًا: فإن الله يبصِّره بنفسه... يجعل في قلبه نورًا يرى به عيوبه؛ كلما وقع في ذنب... يحزن، كلما أخطأ... يحاسب نفسه:

- «لماذا قلت لفلان كذا ؟»
- «لماذا رفعت صوتي على أمي؟»
- «كيف قدرت أتكلم بهذه الطريقة؟»
- «لماذا قلبي قاسٍ؟»

هذا قلب حي... الله قذف فيه نور البصيرة

لحظة محاسبة صادقة:

تبدأ تفكر. تنزعج من الذنوب. تتمنى لو أن الوقت يعود للوراء. تتساءل:

«كيف مرت سنة من رمضان الماضي؟» ، «ماذا فعلت بنفسي؟»، «كيف ضيعت الشهور؟» ، «كم مرَّةً قلت: سوف أتغير... وأتوب ... ؟!»

«وفجأة، لقيت نفسي في رمضان الجديد... على ما أنا عليه، نفس التقصير!»

شريط الحياة...

لو رجعت لشريط السنة الماضية، ما في شيء يُذكر... حتى مَنْ ضحكت معهم وانشغلت بهم، كل واحد ذهب في طريقه... وأنت وحدَك بقيت مع نفسك وهمومك. ما نفعك أحد .. ولا حتى نفسك التي تركتها تضيع في الشواغل والسطحية.

فاسأل نفسك: لماذا رضيت لنفسي بهذا الانشغال؟ لماذا قبلت أن تسير حياتي بلا وِجهة؟ لماذا سحبتني الدنيا للوراء؟

والآن... قد أتى رمضان، هل أنا مستعد أن أرجع لله؟ هل أنا جاهز لأتخلَّى عن التبلد؟ أن أُبصر ذنوبي؟ أن أتوقف عن مدح نفسي وغفلتها؟ وأن أبدأ من جديد؟

هذا هو انزعاج القلب... أول طريق الرجوع. عندما يبدأ قلب المؤمن ينزعج، ويبدأ يحاسب نفسه بصدق: لماذا تراجعت؟ لماذا تنازلت عن طاعات كنتُ أحبها؟ كيف تركت قيام الليل؟! وهجرت القرآن؟ لماذا صرت أستثقل الذكر والدعاء؟

هذا الانزعاج ليس شيئًا عابرًا، بل هو نعمة عظيمة، وهو أولى علامات الحياة في القلب، وأول منازل العبودية.

قال ابن القيم – رحمه الله –:

«فأول منازل العبودية: اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة

الانتباه من رقدة الغافلين.

ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها، وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ - والله - بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة...».

مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ١٤٠).

إذا صدقت مع نفسك...

العبد الصادق يصارح نفسه، ولا يبرر تقصيره... بل يعترف، ويتألم، ويحزن؛ لأن قلبه حي.

المؤمن يرى ذنوبه عظيمة: يرى ذنوبه كجبل فوق صدره، ويخشى أن تسلب منه البركة، ويخاف أن تحرمه من التوفيق في رمضان.

قد تكون ذنوبك الماضية، هي السبب في شعورك الثقيل الآن... في فتورك، أو ضيقك، أو كسلك عن العبادة. لكن هذا الانزعاج بداية حياة؛ عندما ينزعج القلب... يتحرك! يبدأ يسلك، يعود، يشتاق... يتوب من قلبه، ويطرق باب الله برجاء ودموع.

«فإذا انتبه، شمر لله بهمته إلى السفر، إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سُبي منها...»

مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ١٤٠).

لا تستهِنْ بهذه اليقظة

إذا شعرت بالندم، بالحزن، بالخوف... فاحمد الله، فقد بدأ قلبك يتذوق طعم الفلاح

وافتح له الطريق بسجدة، بدعوة، بدمعة، بخطوة.

المعلم الثالث: الفزع إلى الاستغفار

بعد صدق المحاسبة، وانزعاج القلب من الغفلة والذنوب، تأتي الخطوة الفاصلة في السير إلى الله:

- **الاستغفار.**

حين يصدق العبد مع الله، ويقول من قلبه: «يا رب، أريد الغنيمة من رمضان... أريد أن أفوز، أن أتغير، أن أتوب». فهذا الصدق لا يتركه مكانه، بل يُحرِّكه إلى أعظم باب يُطرَق: باب الاستغفار.

الاستغفار... بداية الطريق

العبد حين يتذكر ذنوبه، تقصيره، تفريطه في عمره، ينكسر قلبه ويقول بصدق: «اللهم اغفر لي... اللهم تب عليَّ». وهنا يُفتح له باب من السماء...

﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦]

رحمة الله قريبة... لكنها تحتاج منك وقفة، وقفة هدوء، وقفة توبة، وقفة استغفار...

كيف أستغفر وسط الزحام؟ البيت، الأولاد، الزوج، الطبخ، الهاتف، الالتزامات... كلها لا تنتهي ، لكن إذا كان عندك أمر مهم من أمور الدنيا تتفرغ له .

رمضان أهم من كل شيء. والخير الذي تنشده لا يأتي صدفة،

بل يحتاج منك: جلسة خلوة... تفريغ قلب... وتوبة صادقة.

اجلس وحدك، راجع شريط عام مضى... استحضر لحظات الغفلة، الذنوب، الكلمات، الأفعال، التقصير... ثم قل: اللهم اغفر لي ذنوبي كلَّها. رب اغفر لي، وتب عليَّ. اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني.

ومن أجمل ما دعا به النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ كثير التوجُّه إلى ربِّه بالدعاء، ملازمًا للاستغفار، دائم الذكر. ومن أعظم أدعيته الجامعة ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، حيث قال:

«كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَدْعُو بهذا الدُّعاءِ: رَبِّ اغفِرْ لي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإسْرَافِي في أَمْرِي كُلِّهِ، وما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطَايَايَ، وعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِندِي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ».

رواه البخاري-الصفحة أو الرقم: ٦٣٩٨

شرح دعاء النبي ﷺ: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي..."

* **تأملات في ألفاظ هذا الدعاء المبارك:**

«رب اغفر لي خطيئتي وجهلي»:

أي: امحُ ذنوبي وما بدر مني عن جهل، سواء كنت أجهل أن هذا الفعل محرم، أو غلبتني نفسي بلا إدراك لعواقب الأمور.

«وإسرافي في أمري كله»:

أي تجاوزي للحدود في الأقوال والأفعال، في السر والعلن، عن قصد أو عن غفلة.

«وما أنت أعلم به مني»:

يا رب، اغفر لي ما لا أراه ذنبًا، أو ما نسيتُه، أو غاب عني، فأنت المطَّلع على خفايا النفوس، العليم بكل سرائر الأمور.

«اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي»:

طلب للمغفرة عن:

- الخطايا: الذنوب العظيمة.
- العمد: ما ارتُكب عن وعيٍ وإصرار.
- الجهل: ما كان عن ضعفٍ علم أو فهم.
- الهزل: ما قيل أو فُعل على سبيل المزاح دون انتباه.

كل هذه الحالات... عندي، وقعت فيها، وأنت أعلم بها مني.

«ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت»:

يا رب، اغفر ذنوبي الماضية والآتية، ما أخفيته في قلبي، وما

أظهرته في جوارحي، فأنت وحدك المحيط بعلمي وأفعالي وسري وعلانيتي.

«أنت المقدم وأنت المؤخر»:

أنت يا رب من تُقرِّب العبد وتفتح له أبواب الطاعات، وأنت من تؤخر غيره وتحرمه التوفيق والقبول. تُعز من تشاء، وتُذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير.

«وأنت على كل شيء قدير»:

قادر على مغفرة كل الذنوب، مهما عظُمت وكثُرت، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

◄ **دروس مستفادة:**

- هذا دعاء عظيم علَّمه النبي ﷺ لأمته، رغم أنه ﷺ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- فيه تواضعٌ عجيب من سيد الخلق، وتعليمٌ عمليٌّ لأمته كيف يكون الانكسار لله.
- يدعونا إلى الاستغفار الدائم، والنظر إلى أنفسنا بعين النقص والتقصير، لا بعين الإعجاب بالعمل.
- فيه تحذير من الاغترار بالطاعات، وأنه لا نجاة إلا بمغفرة الله ورحمته.

الموسوعة الحديثية - موقع الدرر السنية - شرح حديث (رَبِّ اغفِرْ لي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإسْرَافِي في أَمْرِي كُلِّهِ..)

◄ **ختامًا:**

إذا كان النبي ﷺ، الذي غفر الله له، يدعو بهذا الدعاء، فما حالنا نحن الذين تتراكم علينا الذنوب والآثار؟ فلنُكثر من هذا الدعاء، ولنعد إلى الله بقلوب منكسرة؛ فهو الغفور الرحيم، لا يردُّ عبدًا دعاه بإخلاص.

الاستغفار الصادق... طريق القبول والرحمة

النبي ﷺ، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان كثير الدعاء والاستغفار، لا عن ذنب، بل شكرًا لله وتعليمًا لأمته.

ومن أعظم أدعيته:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال، وكان من آخر ما يقول قبل التسليم: «اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت».

رواه مسلم (٧٧١)

التفرغ... لتصفية القلب

حين يريد العبد أن يتوب، أن يعود إلى الله بصدق، لا بد أن

يتفرغ، أن ينسحب قليلًا من زحمة الحياة: من البيت، من المطبخ، من الجوال، من العمل، من الناس... لأن القلب لا يتسع لكل شيء، ولا يُملأ بالإيمان والخضوع وهو مزدحم بالدنيا. القلب لا يزاحَم... القلب يُصفَّى، ليُملأ بطاعة الله.

تضرع... تذلل... وارفع يديك إلى السماء، اجلس بين يدي الله في خلوتك، في صمتك، في لحظة صدق وندم، وقل:

- يا ربِّ... أنا نادم على ما ضيَّعت.
- يا ربِّ... أريد أن أؤمن بك حقًا.
- يا ربِّ... من رحمتك أطلب، لا من عملي.
- يا ربِّ... جئتك بضعفي، بجَهلي، بإسرافي على نفسي.
- جئتك وأنا مكسور، مستغنٍ بك عن كل شيء.

فمثل هذا الاستغفار... هو استمطار للرحمة، وفتح لأبواب السماء.

كيف يعاملك الله حين تنكسر له؟

الله لا يرد من أتاه منكسرًا... كما أن الوالد لا يرد ابنه إن جاءه نادمًا باكيًا، معترفًا بخطئه. لكن إن جاءه معاندًا، مبررًا، متكبرًا... فقد يقسو عليه، ويتركه لخطئه. فكيف بالله؟ وهو أرحم بنا من

والدينا... بل أرحم بنا من أنفسنا! أغلقَ أبوابًا... ليفتح لك خيرًا منها .. كم من بابٍ كنا نظنه خيرًا:

- شخص تعلقنا به.
- صديق ظنناه سندًا.
- عمل ظنناه رزقًا.
- علاقة حسبناها سعادة.

لكن الله... أزاحهم من طريقنا، أغلقَ البابَ، لأنه يعلم أنهم ليسوا خيرًا لنا. وأراد لك طريقًا آخر... طريقًا فيه الراحة، والنور، والبركة.

وقفة مع نفسك...

إذا أردت أن تُقبل على رمضان حقًا، فافعل كما فعل الصادقون قبلك: تفرغ لحظة. واستعرض شريط السنة الماضية. واستشعر تقصيرك. وارفع أكفَّ الضراعة: «اللهم اغفر لي، وارزقني التوبة، وبلِّغني رمضان برضاك وعفوك».

قال ابن كثير رحمه الله:

«من اتصف بصفة الاستغفار، يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته». تفسير ابن كثير (٤/٣٢٩)

وهذه الأربع نِعَم عظيمة نحن بأمس الحاجة لها خاصة في رمضان:

١. الرزق.

٢. التسهيل والتيسير.

٣. الحفظ في النفس والجوارح.

٤. القوة والثبات.

فالاستغفار ليس فقط مغفرة ذنوب، بل هو مفتاح لأبواب كثيرة مغلقة؛ قال تعالى في سورة نوح: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢]

تفسير السعدي:

- استغفروا: أي ارجعوا إلى الله، واتركوا الذنوب.
- مدرارًا: مطرًا متتابعًا يحيي القلوب والبلاد.
- يمددكم: يُكثر أموالكم وأولادكم ويمنحكم بركات لا تخطر على البال.
- يجعل لكم جنات... وأنهارًا: لذَّات الدنيا والآخرة.

فالاستغفار استمطار للرحمة، وفتح لأبواب السماء!

القرآن الكريم - تفسير الشيخ السعدي - سورة نوح آية ١٠-١٢

وإذا كنتِ في رمضان تطلب: رزقًا، راحة بال، طمأنينة، صلاح

حال، قوة على الطاعات، حفظ الجوارح والقلب .. فهذا كلُّه لا يأتي إلا من الله، فالرغبة يجب أن تكون إليه، والرجاء منه، والركون عليه. ومَن علم أن الله كافيه... اطمأن قلبه، وتفرغ لعبادته، وزالت همومه، وقويت عزيمته، وصلح حاله، ورضي بالقدر.

كما قال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]

إذا علم العبد أن الله كافيه: تفرّغ لعبادته وحدَه، واطمأن قلبه، وصلح حاله، وزال عنه الخوف من فوات رزق أو حلول بلاء، وعَظُم يقينه بربه دون سواه.

ما الكفاية؟

الكفاية: أن يكفيك الله همَّك، رزقك، صحتك، دينك، دنياك، آخرتك.. فإن مسّك ضيق أو بلاء، أو إن احتجت في دينك أو دنياك، أو إن ضعفتَ، أو ضاعت منك الحيلة؛ فقل: يا كافي، اكفني؛ ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]. ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟ ﴾ [الزمر: ٣٦].

فرقٌ بين الكفاية العامة والخاصة:

- الكفاية العامة: تشمل جميع خلقه، رزقًا وحفظًا.

- الكفاية الخاصة: هي لعباده المتوكلين، المُنيبين، المخلِصين.

من رجع إلى الله، وتوكل عليه، وتفرغ لعبادته، يكفيه الله من حيث لا يحتسب، ويجعل له فرجًا من كل ضيق.

لماذا كل هذا القلق والحزن؟ لأننا لم نعِ معنى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٦]. الناس تعيش في قلق، في وسواس دائم، لأنهم لم يسكنوا إلى الكافي، ولم يلزموا باب العبودية، ولم يطمئنوا أن الله هو الرازق، الحافظ، الكافي، الشافي، الناصر.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه في كل أمور دينه ودنياه. فإذا عرفت أن الله هو الكافي... كفاك. مهما كان همك... لو كان بحجم ذرة أو أثقل من الجبال .. لو كان مثل الكون في شدَّته وتعقيده .. لو كان أمرًا لا يَفهمُه الناس، أو يرونه تافهًا .. لو كان ظلمًا، أو تنمرًا، أو جرحًا من أقرب الناس إليك .. فقط: الله يكفيك.

يكفيك الله في طعامك وشرابك .. يكفيك في شؤون بيتك، في أولادك، في زوجك، في عملك .. يكفيك حتى في أدقِّ المشاعر التي لم تخرج من قلبك .. يكفيك من همٍّ خفيٍّ لا تبوح به لأحد .. يكفيك من همز، لمز، استهزاء، نظرات لا تُنسى .. يكفيك من أذى الناس، ووسوسة الشيطان، وتقلب النفس. فالمؤمن إذا عرف أن لا كافي إلا الله، ولا حافظ سواه، تعلق قلبه به وحده، وأكثَرَ من التوسل إليه بأسمائه الحسنى.

قال ﷺ:

«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا؛ فكم من لا كافي له ولا مؤوي».

أخرجه مسلم (٢٧١٥)

قد لا تقول: «يا رب اكفني»... لكن الله يعلم

أحيانًا لا ترفع يديك بالدعاء .. لكن تحدثتَ في قلبك، بكيتَ في سجودك، تنهدتَ بينك وبين نفسك... الله يعلم همَّك قبل أن تنطقه، ويكفيك إياه؛ لأنك عزيز عند الله.

قال ابن القيم: «الكفاية التامة تكون مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

الوابل الصيب (٦-٧)

وكلما عظمت عبوديتك لله، عظمت كفاية الله لك. فالعبد لا غنى له عن ربِّه طرفة عين... وكلما زدت عبودية... زادت الكفاية .. وكلما اقتربت أكثر، تكفل الله بك أكثر .. وكلما عبدته بإخلاص، عبدته بقلبك قبل جوارحك، كفاك.

قال ابن القيم رحمه الله:

«من اشتغل بالله عن نفسه؛ كفاه الله مؤونة نفسه، ومن

اشتغل بالله عن الناس؛ كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله؛ وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله؛ وكله الله إليهم».

الفوائد (ص: ١٠٧)

في كل تفاصيلك... الله كافيك: في همك، وآمالك، وضيقك في بيتك، ونظرات الاستهزاء، والعتاب الذي لا يُقال، والمشاعر التي لا تُفهم .. كل هذا الله لا يتركه... إن كنت عبدَه.. كفاك.

المَعْلم الرابع: لين القلب

وهو الأساس العظيم في السير إلى الله.

إن شرع الله كله جاء لإصلاح القلوب، وتخليصها من أمراضها الخطيرة؛ كالكبر، والحسد، والرياء، والقسوة. وجاءت الكتب والرسل من عند الله لهذا الغرض: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]. ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٩].

ما الذي يمنع لين القلب؟

إنها الكدية. الكدية: الأرض الصلبة القاسية. تخيَّل من يحفر بئرًا، وفجأة تظهر صخرة عظيمة تمنع وصوله إلى الماء. لا بد من تكسيرها... وإلا فلن يصل إلى الماء العذب. كذلك في طريقنا إلى الله، توجد صخرة تمنع سريان الإيمان، وتُوقِف دموع التوبة، وتجفِّف الخشوع... إنها قسوة القلب.

ما الكدية في قلبي؟

هي القلب القاسي... قلب يبس، لا يخشع، لا يتأثر، لا يلين:

- يسمع القرآن، وكأنما يسمع أخبارًا.
- يرى بلاءً، أو زلزالًا، أو مرضًا... فلا يعتبر.
- يرى الفقير، والمريض، والمكسور... ولا يرق له.
- يسمع موعظة قوية... ثم لا يغيِّر من حاله شيئًا.

قلب تحجَّر... كأن عليه صخرة. وخطورة هذا القلب أنه لا يشعر بالخوف حتى لو وقعت كارثة. ولا يشعر بالنعمة، ولا يشكر، يرى العاصي ولا ينتهي، يرى المحتاج ولا يُعين، يرى النعمة في نفسه ويظن أنها من ذكائه وقوته، لا من فضل الله. وهو لا يدري أن الله قادر على أن يسلبه كل شيء في لحظة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

العلاج: تكسير الكدية!

- بالمحاسبة والندم والتوبة.
- بالتفكر في الموت والآخرة.
- بصدق الخلوة مع الله.
- بتأمل النعم والخشية من زوالها.
- بكثرة الذكر والدعاء.
- بالصحبة الصالحة والكلمة الطيبة.
- بمواقف تحيي القلب كزيارة المريض، وتغسيل الميت، ومساعدة المظلوم.

وكلما كُسرت الكدية... خرج ماء الحياة .. خرج الدمع، خرج الخشوع، خرج الحب، خرج النور.

ذم الله للقلب القاسي:

إن القسوة من صفات القلوب التي أبغضها الله، وذمَّ أصحابها في كتابه، لأنها تُميت الإيمان، وتمنع الخشوع، وتُغلق أبواب الهداية.

قسوة القلب... المرض الخفي .. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾. [البقرة: ٧٤].

إنها ليست مبالغة... بل تقرير إلهي أن بعض القلوب أشد قسوة من الصخور، رغم أن الصخور تتفجَّر منها المياه، وتتصدع، بل تهبط خشية من الله...

القلوب القاسية: لا تخشع، لا تتأثر، لا تتصدع للموعظة، لا يَرِقُّ صاحبها، ولو رأى الآيات.

قول قتادة – رحمه الله – في هذه الآية: «عذر الله الحجارة، ولم يعذر قلوب بني إسرائيل». الحجارة خرج منها ماء، والحجارة خافت من الله، أما قلوبهم: جفَّت، ويَبِست، ولا خير فيها رغم كثرة النعم والآيات التي شاهدوها.

قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-في تفسيره- القرآن الكريم سورة البقرة ٧٤

ما القسوة؟

- القسوة: جمود القلب، وعدم تأثره بكلام الله.

- علامة على المرض الداخلي.
- وقد تكون عقوبة من الله.

نسأل الله السلامة والعافية.

وقد استعاذ النبي ﷺ من القلب القاسي فقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع» [رواه الترمذي].

الألباني | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ١٢٩٧

فالقلب إذا قسا: قلَّ خيره، قلَّ نفعه، لا يُبصَّر صاحبه، لا يوفَّق للحق، لا يتلذذ بالطاعة، يبقى في ظلمة وغفلة مهما بدا ظاهره متدينًا.

أسباب قسوة القلب:

- كثرة المعاصي.
- طول الأمل والغفلة.
- ترك القرآن.
- الانشغال بالدنيا.
- كثرة الضحك واللغو.

القلوب ليست على درجة واحدة من اللين، ولقد وصف القرآن لنا ثلاث درجات من رِقّة القلوب:

المشهد الأول: لين القلب بذكر الله – سورة الزمر

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ، ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾. [الزمر: ٢٣].

هذا هو أول مشهد من مشاهد لين القلوب:

- تَقْشَعِرُّ جلودهم: شعور ظاهري ملموس، يرتجف له الجلد، علامة خشية حقيقية في القلب.
- ثم تلين جلودهم وقلوبهم: تنتقل القشعريرة من الجوارح إلى أعماق النفس، فيسكن الخوف، ويطمئن الفؤاد، ويخضع القلب للذكر.

هذه أعلى مراتب التفاعل:

١. خشية قلبية.

٢. رجفة جسدية.

٣. لين داخلي واستسلام للذكر والطاعة.

المشهد الثاني: فَيَضان الدموع من شدّة معرفة الحق

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ، تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ، مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

هذه درجة أعلى من درجات لين القلب:

- لم يقف الأمر عند القشعريرة واللين، بل تجاوز إلى:
  - فيض الدموع.
  - إيمان راسخ.
  - رجاء صادق أن يكونوا من الشاهدين على الحق.

ما الذي جعل أعينهم تفيض بالدمع؟

ليس مجرد التأثر العاطفي، بل:

- لمَّا عرفوا الحق!
- استشعروا عظمة ما أنزل الله.
- أدركوا أن ما وصلهم هدى ورحمة.
- فخشعوا... ثم رقَّ القلب... ثم انفجر الدمع.

ليست دَمعة واحدة...

بل قال الله: تَفِيضُ

- كأن العين نهر مفتوح، لا يستطيع حبس ما يجري فيه من فيض المشاعر.
- لا يمكن حبس البكاء حين يكون سببه معرفة الله وتدبر كلامه.
- هذا بكاء القرب والحب والخوف والخجل والرجاء، كلُّه ممتزج.

إذًا:

- في المشهد الأول: بدأ الأمر بقشعريرة، ثم لين.
- وفي هذا المشهد الثاني: القلب يفيض دمعًا وشهادةً وإيمانًا.
- لأنه عرف الحق، وأحب الله، وخاف فوات القرب منه.

المشهد الثالث: السقوط سُجَّدًا من الخشية

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ، إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

تأمل:

- لم يقل: «يسجدون».
- بل قال: «يَخِرُّونَ».
  - أي يسقطون فجأة، يهوي الجسد، ما عاد يتحمل.
  - ليس أمرًا متعمدًا، بل ردة فعل تلقائية من وقع الهيبة والخشوع.

ماذا حدث لهم؟

- خرّوا سُجَّدًا.
- ما عادوا يملكون الجسد، القوة تخلَّت عنهم.
- الهيبة والمهابة خرت بها قلوبهم، فتبعتها الأجساد.
- قوة الإيمان، صدق المعرفة، عظمة التأثر، وخشية الله، جعلت أقوياء الأجسام ينهارون بين يدي الله سجودًا.

مشهد يهز القلب:

- رجل قوي، عاقل، واثق بنفسه...
- يخرُّ! لا يستطيع الوقوف.
- يبكي، يرفع يديه، ينتفض، يرجو، كأن الله ناداه بقلبه.
- كأن الآية كانت له وحده.

هذه أعلى درجات لين القلب:

١. في المشهد الأول: قشعريرة الجلد ثم لين القلب.

٢. في المشهد الثاني: فيض الدموع من معرفة الحق.

٣. في هذا المشهد: الانهيار الكامل سُجودًا من خشية الله.

ماذا يعني أن تصل إلى هذه الدرجة؟

- أن يُصبح كلام الله أقوى من عضلاتك.
- أن يُصبح الحق أثقل من جسدك.
- أن تستحي من الله حياء يجعلك لا تملك نفسك إلا أن تسجد له.

قلوب ترى بنور الإيمان: لو أننا استطعنا أن نرى القلوب كما نرى الأجساد،

لرأينا قلوبًا:

- خاشعة، منحنية لجلال الله.
- عامرة بالإيمان، تتزين بحب الله.
- مشتاقة للنظر إلى وجه الله الكريم.
- مترقبة للبشرى، مطمئنة بوعد الله.
- قلوب تُحِب وتَخْشى وتَخْضع وتَبكي لله فقط.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:٧]

قارن بين قلبك... وقلب عمر:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان من أشد أعداء الإسلام... تحوّل بآية. نعم، آية واحدة: أَبْكَتْهُ آية. أَمْرَضَتْه آية. أَوْقَفَتْهُ آية. غَيَّرَتْ قلبه آية. إنه قلب حيٌّ، قلب يلين، قلب إذا طرقه كلام الله انفتح وخضع وركع وسجد... قلب عمر لان... فلانت جوارحه

جبير بن مطعم وقلبه الطائر:

قال جبير بن مطعم: «كاد قلبي أن يطير» لما سمع آيات من سورة الطور من النبي ﷺ وهو يصلي بالمغرب:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

- كان جبير لا يزال كافرًا وقتها، لكن كلام الله كاد أن ينتزع قلبه من بين أضلاعه
- تأمل: ما الذي يجعل قلب كافر يطير؟

- الحق إذا سُكِب على قلب فيه استعداد.

صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: ٤٨٥٤

ماذا عن قلوبنا؟

- كم مرّت عليك آيات؟
- كم مرة سمعت القرآن؟
- كم مرة بكت عيناك... أو خشع قلبك؟

إذا لم يتحرك القلب، فلنسأل أنفسنا بصدق:

هل في القلب قساوة تمنع الماء أن يخرج؟

إذا لان القلب... لان الجسد، ورَقَّت العين، وسمت الروح، وأصبح القرآن حديث القلب لا اللسان فقط.

الرقة القلبية والرحمة الإيمانية التي يحبها الله، ويُبشِّر بها النبي ﷺ حين قال:

«يدخل الجنة أقوامًا أفئدتهم مثل أفئدة الطير».

[رواه مسلم]

هذا الحديث ليس وصفًا للضعف، بل وصف لعظمة القلب، وصفائه، ورقَّته التي هي من علامات الإيمان الخالص.

قلوب مثل أفئدة الطير .. ما معنى «مثل أفئدة الطير؟».

- رقيقة لا تحمل حقدًا ولا غلاً.
- قلوب رحيمة تشفق وتحن وتبذل.
- خالية من الغدر، طاهرة من الحسد والظلم.
- سريعة الخوف من الله، سريعة الرجوع، خفيفة الحمل.

مثل الطير... لا يعرف حقدًا، لا يحمل ثقلاً، ولا يعيش إلا بيقين برزق ربه كل صباح

أصحاب هذه القلوب:

- يُتهمون أحيانًا بالسذاجة، لكنهم عند الله من أهل الجنة.
- لا يعرفون الانتقام، وإن قَدروا على من ظلمهم، عفوا وسامحوا.

- يتألمون لآلام الناس، يبكون لحزنهم، ويسارعون للوقوف بجانبهم.
- لا يعرفون استغلالًا ولا مكرًا، بل ينظرون للناس بعين الصفاء.
- إذا رأوا فقيرًا رقّ قلبهم، وإذا سمعوا بمأساة دمعت أعينهم.

لكن انتبه... هذه الطيبة ليست ضعفًا، بل قوة إيمانية .. هذه الرقة ليست سذاجة، بل قرب من الله .. هذه الرحمة ليست غفلة، بل فطرة نقيّة.

قال ابن القيم رحمه الله: «القلوب ثلاثة: قلب حيٌّ يخفق بالإيمان، وقلب ميت لا يعرف معروفًا، وقلب مريض بين ذلك».

إغاثة اللهفان: (١/ ٢٠).

فهنيئًا لمن كان قلبه حيًّا، رقيقًا رحيمًا.

لماذا نحتاج إلى لين القلب؟

لأن:

- القلب هو أداة التلقي: إذا دخل النور القلب، تبعته الجوارح.
- القلب هو مفتاح التغيير: لا تتغير الحياة إلا بتغيُّر القلب.
- القلب هو محرك العبادة الحقيقي: فكم من جسد نشيط... وقلبه غافل!
- القلب هو الذي يُبلِّغك الله به، لا قوة بدنك ولا صيامك فقط.

خطأ شائع:

«أنا صغيرة، صحتي جيدة، آكل صحي، سأقوم الليل وأصوم»

لكن العبادات ليست بالمجهود البدني فقط، بل:

- بقلبٍ يشتاق.
- ونفسٍ تتذلل.
- وروحٍ تتعلق.

ولهذا:

- نرى كبار السن يقومون الليل بتعب، لكنهم يتذوقون اللذة أكثر من غيرهم.
- المريضة تقول: «ليتني أستطيع أن أقوم في ليلة القدر»، قلبها بلغها... حتى لو جلست على كرسي. العبرة ليست بوقوفك... بل بقلبك .. ليس الذي يبلِّغك ليلة القدر هو التورم في القدمين... بل قلبك الذي وصل إلى الله

* كلما رقَّ القلب، قاد صاحبه إلى القرب، وكلما قسا... ضلَّ صاحبُه وهو يظن أنه قريب *

اللهم ارزقنا قلبًا ليِّنًا، خاشعًا، محبًا، مطيعًا، عامرًا بذكرك... آمين.

لماذا نحتاج إلى لين القلب في رمضان؟

لأن القلب هو المحرك الحقيقي لكل عبادة:

- إذا لان القلب، تذوقت لذَّة الطاعة .. إذا خشع القلب، بكت العين، وانقادت الجوارح .. إذا رقَّ القلب، نطقت بـ «سمعنا وأطعنا».

مثال يوضح المعنى:

الحاج في الحج: نومه قليل .. مجهوده كبير .. يتنقل، يبيت مع أناس لا يعرفهم .. حرٌّ، تعب، مشقة .. ومع ذلك... يذوق لذَّةً لا تُوصف! لماذا؟ لأن القلب هو الذي يذوق. هو الذي شعر بأنه ضيف على الرحمن. هو الذي ذاق الطاعة، فأنس بها .. الجوارح تتعب... لكن القلب يسحبها للطاعة.

لماذا أريد قلبي يلين؟
لأن:

- هو الذي يفهم العلم، ويحفظه ويعمل به.
- هو أداة التغيير الحقيقية: إذا تغيَّر، تغيَّر كل شيء.
- هو من ينبِّهك: «قُم، بقيت أيام قليلة من رمضان».
- هو من يدفعك للمسارعة حتى لو جسدك متعب.
- هو من يجعل الجوارح تذعن للطاعة، وتتحمل.

كم من أخ يقول: «أنا تعبان، مشغول، مرهق».

لكن القلب الحي يقول له:

- «أيام قليلة، فسارع!».
- «كُثر يسابقونك، استعنْ بالله».
- «الله يُعينك، فقط توكل».

الهدف:

نريد قلبًا يحب الله... قلبًا لينًا، حيًا، رقيقًا، يتحسس لكل ذِكر، ولكل آية، ولكل موقف من مواقف القرب. لأن القلب إذا ذاق لذَّة الطاعة... لن تسأل عن تعب الجوارح، بل ستسابقك نفسك.

سؤالك مهم جدًا: «كيف ألين قلبي؟»

نعم، هناك ملينات للقلوب، وكما ذكرت، أول وأعظم ملين:

١. كثرة الذكر.

٢. تلاوة القرآن بتدبر.

٣. دعاء: «اللهم اجعل قلبي خاشعًا، ليِّنًا».

٤. صحبة الصالحين.

٥. البُعد عن الذنوب التي تُقَسِّي القلب.

٦. مشاهدة مشاهد الرحمة، والتأمل في نعم الله.

لين القلب مفتاح القرب من الله

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رسول الله ﷺ، الذي نزل عليه الوحي، وأيده الله، لم يكن يُعامل الناس بالشدة، بل برحمةٍ أنزلها الله على قلبه، فكان لينًا، رحيمًا، قريبًا من الناس.

* بالرحمة... لا بالغلظة، باللين... لا بالتجريح *

المراجع:

- قلوب الطير- حسين بن شامر القحطاني .
- نفحات شهر رمضان - ماهر بن حمد المعيقلي .

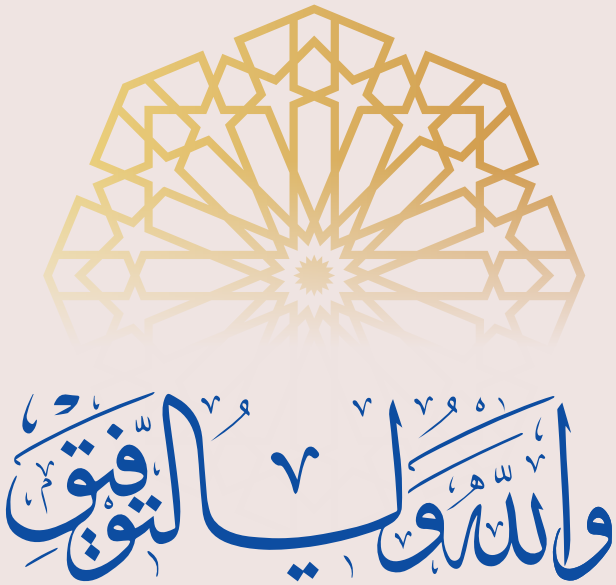
والله ولي التوفيق

سَيْرُ القُلُوبِ